



التَّحْيِيزُ الفِلسَفيُّ الغَربيُّ ضِدَّ حَقُوقِ الإنسانِ

طلال عتريسي*

فوجئ كثيرون ببيان أصدره الفيلسوف الشهير «يورغن هابرماس» (Jürgen Habermas) في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2023م، بمشاركة ثلاثة من النخبة الأكاديمية الألمانية في الصحافة الأوروبية والعالمية، هم: «نيكولا ديتلهوف» (Nikola Dimitrov) أستاذة العلوم السياسية، و«راينر فورست» (Rainer Forst) الفيلسوف المعروف، والأستاذ «كلاوس غونتر» (Klaus Gunter). تناول البيان الأحداث الجارية في قطاع غزة؛ إذ أدان «المجزرة التي ارتكبتها حماس ضدَّ «إسرائيل» بنيَّة إبادة الحياة اليهودية بشكلٍ عامٍّ»، وأعرب الموقعون فيه عن تضامنهم مع «إسرائيل».

صدر بيان بعنوان «مبادئ التضامن، اتِّخاذ موقف»، بعد نحو شهر من عملية «طوفان الأقصى» التي نفَّذتها حركة حماس في 7 تشرين الأول/أكتوبر، مستهدفة المستوطنات الإسرائيلية المعروفة بـ«غلاف غزة». أسفرت العملية عن أسر عدد من الضُّباط والجنود والمستوطنين، في محاولة للضُّغط من أجل إطلاق سراح آلاف الأسرى الفلسطينيين المحتجزين في السِّجون الإسرائيلية منذ سنوات طويلة.

* أستاذ علم الاجتماع، ورئيس تحرير مجلة جامعة المعارف.

بعد يومين فقط من هذه العملية، فرضت «إسرائيل» حصارًا خانقًا على قطاع غزة، شمل منع دخول الغذاء والماء والدواء والوقود والكهرباء، ثم تصاعدت الأحداث إلى حرب عسكرية مباشرة. ووفقًا لتقرير أصدرته الأمم المتحدة (الإسكوا) في تشرين الأول/أكتوبر 2023م، «أفضت الحرب على غزة، تحت وطأة الحصار الكامل الذي تفرضه «إسرائيل» على القطاع، إلى زج السكان في دوامة غير مسبقة من الحرمان والفقر المتعدد الأبعاد، وتالياً إلى كارثة إنسانية على المستويات كافة».

ذكرت قناة (France 24) في 2023/12/26م، بعد 80 يوماً من بدء العمليات العسكرية، «أن الدمار الهائل في غزة لم يشهد له العالم مثيلاً خلال القرن الواحد والعشرين». جاء ذلك عقب حملة عسكرية شنتها الكيان الصهيوني، تضمنت قصفًا جويًا وصاروخيًا ومدفعيًا، بالإضافة إلى عمليات برية ميدانية، ما أسفر عن مقتل أكثر من 20 ألف فلسطيني وإصابة نحو 60 ألفًا آخرين. كما أدت الحملة إلى تدمير معظم البنية التحتية والمنازل المدنية والمساجد والكنائس، وانهيار القطاع الصحي في غزة. وارتفع عدد الضحايا، حتى نهاية آذار/مارس 2024م، إلى أكثر من اثنين وثلاثين ألفًا. وخلال هذه الحرب، صرّح وزير الدفاع الإسرائيلي «يوآف غالانت»، واصفًا الفلسطينيين بأنهم «حيوانات بشرية».

صدر بيان «هابرماس» ورفاقه في ظل هذا الوضع العسكري والإنساني المتأزم؛ إذ تعمد الموقعون «إعلان موقف» يدعم العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في فلسطين، في وجه ما أطلقوا عليه «هجوم حماس الوحشي الذي لا مثيل له». ولم يكتفوا بذلك؛ بل رأوا موقفهم هذا بمثابة «مبادئ لا يمكن الاعتراض عليها، وتُشكل أساس التضامن مع «إسرائيل» ويهود ألمانيا»؛ «لأن المذبحة التي نفذتها حماس بهدف معلن، هو تدمير الحياة اليهودية بشكل عام، ما دفع إسرائيل إلى الرد».

ويذهب البيان إلى نفي التهمة عن النوايا الإسرائيلية بارتكاب إبادة جماعية، قائلاً: «إن معايير التقييم تُخطئ تمامًا عندما نعزو نوايا الإبادة الجماعية إلى الفعل الإسرائيلي». وعلى وجه الخصوص، فإن تصرفات «إسرائيل» لا تسوّغ ردود الفعل المعادية للسامية، وحتى أقل من ذلك في ألمانيا. من غير المحتمل أن يتعرّض اليهود في ألمانيا مرة أخرى لتهديد في حياتهم أو سلامتهم الجسدية، وأن يُضطروا

إلى الخوف من العنف الجسدي في الشوارع».

وهذا يعني أن «هابرماس» ورفاقه يعلنون، من دون أي تردد، موقف التضامن مع ما يقوم به الجيش الإسرائيلي لحماية «الحياة اليهودية» التي تُهدد «الوحوش البشرية» بتدميرها، في حين أن «إسرائيل» لا تنوي تنفيذ أي إبادة جماعية ضد السكان الفلسطينيين. ويصل الأمر إلى القلق من أن يتعرض يهود ألمانيا مرة أخرى للتهديد في حياتهم وسلامتهم. في الوقت الذي يُقتل فيه الأبرياء الفلسطينيون، يُحيلنا «هابرماس» إلى ما تعرض له اليهود في ألمانيا من اضطهاد وخوف خلال فترة الحكم النازي؛ ليسوع بذلك موقف التضامن «الإنساني» مع جيش العدو الإسرائيلي، ومع اليهود في مواجهة «وحشية حماس» التي تُهدد حياتهم وسلامتهم، «وتريد القضاء عليهم مجدداً»، مستعيداً بذلك «فوبيا» تهمة العداة للسامية وسردية اليهود «الضحايا» الذين لا يفعلون سوى «الدفاع عن النفس».

تكمُن مشكلة «هابرماس» ورفاقه في أنهم يتجاهلون أن ما قامت به حركة حماس لا يقتصر على يوم السابع من تشرين الأول/أكتوبر؛ إنما كان نتيجة تراكم سنوات وعقود طويلة من الحصار والاحتلال للشعب الفلسطيني. ولم يكن مفاجئاً بالمعنى التاريخي والاجتماعي؛ بل هو نتاج عملية مستمرة من العنف المتشابك والتمتين على مختلف الأصعدة ضد الشعب الفلسطيني، لذلك كان لا بُد من التمرد عليها في لحظة ما.

ومن اللافت أن يتجاهل الفيلسوف سياق تفسيره لحدث ما وخلقياته! لكن «هابرماس» يعود إلى هذا السياق التاريخي عندما يستحضر المجتمع الألماني في نصّ البيان، وما ارتكب فيه من فظائع بحق اليهود، وهو ما لا يجب أن يتكرر على أيدي الفلسطينيين. إن ما يفعله «هابرماس» في بيانه الشهير ليس سوى تكرار للسياسات الغربية الأخلاقية التي توازن بين المصلحة والقوة على حساب الحقوق والعدل، عندما يتعلّق الأمر بمصالح الغرب، أو بمصالح «إسرائيل».

هكذا يتعاطى نصّ «هابرماس» في بيانه، وكأنّ قضية فلسطين لا تاريخ لها، أو كأنّ حركة حماس قامت فجأة من مكان ما، وشنت هجوما «الوحشي» على اليهود الآمنين. لكن «هابرماس» يستعيد التاريخ في الوقت نفسه ليذكر بما تعرض له اليهود على يد النازية في ألمانيا.

ما فعله «هابرماس» ورفاقه أثار جدلاً حول قضية ادعاء الفيلسوف أو المثقف

الغربي، عمومًا، هُويّة إنسانيّة من جهة، وتحيزه في الوقت نفسه إلى غربيّته الاستعلائيّة من جهة ثانية. خصوصًا وأنّ «هابرماس»، كأنموذج، كان يدعو في فلسفته إلى حلّ إشكاليّة الحداثة وعلاقة الذات بالآخر¹. وهذه الفلسفة تبلورت، كما يقول «هابرماس» نفسه، إبان حقبة الحكم النازي في ألمانيا الذي تأسس على مبدأ تفوّق الذات الألمانيّة والعرق الآري، والذي «ارتكب فظاعات بحقّ الأجناس والأعراق الأخرى المختلفة عنه». وبمجرّد صدور بيان «نداء التّضامن» لـ«هابرماس» ورفاقه انهالت الرّدود والمقالات من باحثين وكتاب عرب ومسلمين تُندّد وتنتقد وتتهم «هابرماس» بالانحياز، والسّقوط الأخلاقيّ، والتّهافت، والذاكرة المثقوبة.

وممّا جاء في عناوين بعض تلك المقالات:

«حرب غزوة وأزمة هابرماس الأخلاقيّة»، «هابرماس ومدرسة فرانكفورت، ماركسيّة معطوبة»، «من سارتر إلى هابرماس... البوصلة الخاطئة لبعض مثقفي الغرب»، «طوفان الأقصى يفضح الفلسفة العقلية الألمانيّة»، «يورغان هابرماس... الذاكرة المثقوبة»، «الموقف المتهافت لهابرماس ومن معه»، «مبادئ التّضامن»، «الغرب المتصدّع»، «يورغان هابرماس، سقطة الفيلسوف».

كان «هابرماس» يدعو إلى تأسيس عقلانيّة تواصليّة تستند إلى مبادئ قيمية وأخلاقيّة تتلافى عيوب العقلانيّة الأداةيّة، وكان مسعاه النقديّ يتمثّل في تقويم الحداثة والعقلانيّة من خلال تأسيس معايير أخلاقيّة تضبط عمليّات العقلنة وتحركاتها، وتتأسس هذه المعايير على اعتبارات التّواصل والاعتراف بالآخر². يبدو أنّ هذه الإشكاليّة التي بُنيت عليها فلسفة «هابرماس» تكاد تقتصر على العلاقة مع الآخر الغربيّ/اليهودي، الذي تعرّض لفظاعات الحكم النازي في ألمانيا. كما يظهر أنّ تلك «المعايير الأخلاقيّة» و«اعتبارات التّواصل والاعتراف بالآخر» الفلسفيّة لم تكن موجّهة عمليًّا إلا إلى الفضاء الغربيّ الذي يعيش فيه «هابرماس» ويُفكر فيه، وهو الذي كانت اهتماماته الفلسفيّة ومواقفه المبدئيّة مرتبطة بمصير ألمانيا وملتزمة بهموم المجتمع والدّولة الألمانيّة بعيد انتهاء الحرب العالميّة

1- راجع: يورغان هابرماس، الحداثة وخطابها السياسيّ، ط1، بيروت، دار النّهار، 2002م.

2- راجع: يورغن هابرماس، الدّين والعقلانيّة، نصوص وسياقات، ط1، سوريا، دار الحوار، 2016م.

الثانية. وقد وصفه وزير الخارجية الألمانيّ الأسبق «يوشكا فيشر» (Joschka Fischer) بأنه «فيلسوف الجمهوريّة الألمانيّة الجديدة»، منذ أكثر من خمسين عامًا.

لذلك، فإنّ هذه «المعايير الأخلاقيّة» كلّها تختفي في الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة؛ إذ يظهر «هابرماس» تحيزًا علنيًا ويتضامن مع المحتلّ الإسرائيليّ الذي يرتكب إبادات يشهد عليها العالم بأسره. كما يتضامن في الوقت نفسه مع حكومته الألمانيّة التي لن تعود إلى اضطهاد اليهود، بينما تمدّد جيش العدو الإسرائيليّ بأكثر أنواع الأسلحة فتكًا بعد الولايات المتّحدة، وتقف إلى جانب هذا الجيش في حربه على الشعب الفلسطينيّ، وترفض الدّعوة إلى وقف الحرب.

لم تكن المرّة الأولى التي يتحيز فيها فيلسوف أو مثقف غربيّ «إنسانيّ» إلى سياسات الغرب الذي يُفسّر احتلال الشعوب ونهب ثرواتها بذريعة نقلها من التخلّف إلى التمدّن، فقد فعل ذلك مُفكّرون آخرون منذ القرن التاسع عشر، في لحظة التوثّب الغربيّ للاحتلال والتّوسّع.

وها هو «فيكتور هوغو» (Victor Hugo) على سبيل المثال، مؤلّف رواية «البؤساء»، يرى في احتلال فرنسا للجزائر «خيرًا مفرحًا». يقول صاحب تلك الرواية الشهيرة: «إنّ الغزو الذي قمنا به في الجزائر ذو شأن كبير ومفرح. إنّها الحضارة التي تكتسح البربريّة. إنّهُ الشعب المستنير الذي يذهب باتجاه شعب غارق في الظلام. نحن إغريق العالم وعلينا أن نضيئه».

كما خطب «هوغو»، الذي كان عضوًا في مجلس الشيوخ الفرنسيّ، مشجعًا أبناء وطنه على تسريع عمليّة استعمار أفريقيا، واصفًا هذا الاستعمار بالضروريّ والسّهل. فأردف قائلاً: «هيا أيّها النّاس، استولوا على هذه الأرض، احصلوا عليها. لمن تعود ملكيّتها؟ إنّها ليست ملكًا لأحد. اذهبوا واحصلوا على هذه الأرض لأجل الرّب، إنّهُ هو الذي يهب الأرض للنّاس، والرّب أهدى أفريقيا لأوروبّا...»¹.

1- سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر: صفحات مظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر من الاحتلال 1830م إلى الاستقلال 1962م، الجزائر، دار هومة للطباعة والنّشر، 2005م، ص 21.

راجع أيضًا:

Pierre-Jean Luizard, «Le choc colonial et l'Islam, Les politiques religieuses des puissances coloniales en terre d'Islam», Éditions la Découverte, Paris, 2006, p. 18.

لم يرَ «هوغو» أي تناقض بين تشجيعه على تحرير السود من العبودية واحتلال قارتهم؛ «لأنّ الرّجل الأبيض - كما يقول «هوغو» - صنع من الأسود إنساناً في القرن التّاسع عشر. وبالطريقة نفسها، ستصنع أوروبا من أفريقيا عالماً في القرن العشرين»¹.

من هذا المنظور الاستعلائيّ نفسه، أنكر الرّئيس الفرنسيّ «إيمانويل ماكرون» (Emmanuel Macron) أصل وجود الجزائر خارج الحقبة الاستعماريّة بالقول إنّ «الاستعمار هو بداية تاريخ شمال أفريقيا. وقبل هذا الاحتلال لم يكن لهذه الشعوب تاريخ»². وفي المقابل، يعترف من سبقه من رؤساء فرنسا، مثل جاك شيراك (Jacques Chirac): «أنّ فرنسا من دون خيارات أفريقيا ستكون من دول العالم التّالث، وأنّ ثروات بلاده هي من استغلال أفريقيا». وفي مقابلة له بتاريخ 2022/11/9م، قال حرفياً: «إنّ جزءاً من المال الموجود في جيوبنا أتى بالتّحديد من الاستغلال منذ قرون لأفريقيا، ليس كلّها، ولكن الكثير منه أتى من استغلال أفريقيا. ويجب أن نملك القليل من العقل السليم ومن العدالة؛ لنعيد للأفريقيين ما سلبناه منهم، إذا أردنا أن نتفادى أسوأ الصّراعات أو أصعبها، مع التّائج السياسيّة المترتبة عن ذلك في القرون المقبلة».

كما يعترف الرّئيس الأسبق «فرنسوا ميتران» (François Mitterrand) قائلاً: «من دون أفريقيا، لن تملك فرنسا أيّ تاريخ أو تواجد في القرن الحادي والعشرين؛ فبقاء سيطرة فرنسا على أفريقيا يكسبها قوّة عالميّة».

وينضمّ إلى قائمة المدافعين عن استعمار أفريقيا، من منطلق الاستعلاء نفسه، الأديب الفرنسيّ «ألبيير كامو» (Albert Camus) بقوله: «إنّ الأرض ملك لمن يراها بشكل أفضل»³. كذلك «جول فيري» (Jules Ferry) الذي اشتهر برؤاه الإصلاحية التّربويّة في فرنسا، وكان من أشدّ أنصار الحركة التّوسعية الفرنسيّة؛ إذ قال أثناء نقاش برلمانيّ في عام 1885م: «إنّ سبب التّوجّه إلى استعمار أفريقيا أنّ

1- مقال بعنوان: عندما احتلت فرنسا أفريقيا لتضع حدّاً للعبودية، مجلّة Le Nouvel Observateur الفرنسيّة، تاريخ 2020/7/18.

2- Le Monde, 2/10/2021.

3- سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر: صفحات مظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر من الاحتلال 1830م إلى الاستقلال 1962م، ص 50.

العرقيات المتفوقة لديها حقوق على حساب العرقيات السفلى. كما أن للأولى واجباً يتمثل في نشر الحضارة لدى الثانية. وإن مقولة «حرية، مساواة، إخاء» لم تنشأ ولا تصلح للشعوب المولّى عليها»¹.

لقد جعل الغرب الأوروبي النزعة الإنسانية «تقتصر على المنتسبين إليه، مع الاعتقاد بأن الشعوب الأخرى كانت متخلفة، وتعيش وفق مواصفات العهود السحيفة؛ أي إنها بدائية»²؛ أي أنهم «وحوش بشرية» بحسب قول وزير الدفاع الإسرائيلي، عن الفلسطينيين، وهجوم حماس «وحشي»، كما وصفه بيان الفيلسوف «هابرماس» ورفاقه.

وهؤلاء «المتمدّنون» في الغرب هم «الحديقة»، وباقي العالم هو «الغابة» أو «الأدغال»، كما وصفهم «جوزف بوريل» (Joseph Borrell)، منسق الأتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية، في خطابه في افتتاحية الأكاديمية الدبلوماسية الأوروبية ببلجيكا، في 19/10/2022م، إذ قال: «إن أوروبا حديقة، لقد بنينا حديقة، أفضل مزيج من الحرية السياسية والرّخاء الاقتصادي والترابط الاجتماعي استطاعت البشرية أن تبنيه، لكن بقية العالم ليست حديقة تماماً، بقية العالم... أغلب بقية العالم هو أدغال».

وأضاف: «الأدغال يمكن أن تغزو الحديقة، وعلى البستانيّين أن يتولّوا أمرها، لكنهم لن يحموا الحديقة ببناء الأسوار. حديقة صغيرة جميلة محاطة بأسوار عالية لمنع الأدغال لن تكون حلاً؛ لأنّ الأدغال لديها قدرة هائلة على النمو، والأسوار مهما كانت عالية لن تتمكن من حماية الحديقة. على البستانيّين أن يذهبوا إلى الأدغال، على الأوروبيّين أن يكونوا أكثر انخراطاً مع بقية العالم، وإلا فإن بقية العالم سوف تغزو أوروبا».

أما الأسوأ في ما قاله «بوريل» في بيان اعتذاره الذي نُشر على موقع الأتحاد الأوروبي، فهو أن استعماله مصطلحي «الحديقة» و«الأدغال» ليس من اختراعه، إنّما كان هذا المفهوم حاضراً في النقاشات الأكاديمية والسياسية منذ عقود³؛ أي أن مفاهيم الاستعلاء، مثل الحديقة والغابة والتّمدين والتخلف، أنتجت في البيئات

1- مجلة Le Nouvel Observateur.

2- إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربريتها، المغرب، دار توبقال للنشر، 2007م، ص 25.

3- موقع الجزيرة، 2022/10/19م.

الأكاديمية أساساً؛ ليستخدمها السياسيون استناداً إلى مشروعيتها الأكاديمية. يبدو أن «الوحوش البشرية»، التي يُطلق عليها «البدائية» و«المتخلفة» أيضاً مقارنة مع «تمدّن» الغرب المكلف بنقل الحضارة إلى تلك «الوحوش»، لها امتداد فكري في التشكل التاريخي للغرب نفسه. فهذا هو «هيجل» (Hegel)، الفيلسوف الشهير (1770م - 1831م)، يجزم قائلاً: «في الغرب فقط تقف الحرّية... ففي الغرب يدخل الفكر في ذاته ويصبح فكراً كونياً، وبذلك تنصب أوروبا نفسها مركزاً تدور في فلكه آلاف السنين من الحضارات الشرقية التي تنتظر ولادة المعجزة الإغريقية ووريثها التنويري الأوروبي».

ولا يجب أن يفاجئنا موقف «هابرماس»، ف«هيجل» يأبى تدنيس تاريخ البشرية بمجمعات داكنة البشرة ومصنفة دون «الاستبداد الشرقي»، مدّعياً أن أفريقيا «لا تنتمي إلى تاريخ العالم» (كما قال «ماكرون» عن الجزائر أنها لم تكن شيئاً قبل الاحتلال الفرنسي). وبما أن أفريقيا أرض تدبّ فوقها كائنات غير عاقلة، تعيش ولكنها لا تتطور، فإنها تُشكّل فرصة ذهبية للتوسع الألماني الذي سينعم عليها بالتطور¹. إن هذا التّطابق بين الفكرة الفلسفية والفكرة الاستعمارية يُعدّ جزءاً من رؤية فكرية ذات جذور عميقة في التاريخ الغربي.

وحتى الماركسية نفسها، الفلسفة التي تنتقد النظام الرأسمالي، كانت تعتقد بدورها بالاستعلاء الغربي «التمدّن». وربما يفاجئنا «ماركس» (Karl Marx) (1818م - 1883م) برؤيته التي لا تختلف جوهرياً عن رؤية «هيجل». يقول، في مقالة له نشرت في مجلة أميركية عن «سياسة روسيا التقليدية إزاء السلطنة العثمانية»: «إن القسطنطينية هي المدينة الخالدة، إنها روما الشرق. ففي القسطنطينية اختلقت الحضارة الغربية بالبربرية الشرقية، وقد تكثف لاحقاً هذا الاختلاط مع البربرية الشرقية، تحت السيطرة التركية، لدرجة أن المدينة، بكونها مركزاً لإمبراطورية تيوقراطية، أصبحت تشكّل سداً منيعاً في وجه التّقدم الأوروبي»².

1- منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية، بيروت، دار الرّيس للكتب والنشر، 2009م، ص 85.

2- George Wilhelm Friedrich Hegel, Leçons sur l'histoire de la philosophie, Tome 1, J. Vrin, 1971.

ذكره: سهيل القش، المرأة المتكسرة نشطي الكيان اللبناني، بيروت، رياض الرّيس للكتب والنشر، 2022م، ص 71-102.

يستخدم «ماركس» مصطلحات «الحضارة الغربية» و«البربرية الشرقية» و«السدّ المنيع في وجه التقدّم الأوروبي». إنها المصطلحات نفسها عن «الوحوش البشرية» وعن الحديقة والأدغال التي يستعيدها من المخزون الثقافي الغربي منسّق الاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية. «إنه الخطاب الكولونيالي الغربي الذي يُقدّم رؤية متعصبة وصورة نمطيّة عن الشرق تجعله في خانة التابع والهامشي للمستعمر، لتأيد هيمنته ومركزيته». كما يُقدّم هذا الخطاب صورة المستعمر «التابع» بوصفها غير قابلة للتقدّم في التاريخ؛ لتحقيق رغبة استعلاء الذات الاستعماريّة التي توصف بأنها ذات قدرة كليّة وذات حضور كليّ في التاريخ، كما وصفها إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق¹.

ومن مدرسة «فرانكفورت» (Frankfurt) «النقدية» نفسها التي ينتمي إليها «هابرماس»، نُشر أحد أكثر نصوصهم السياسيّة صراحةً في عام 1956م، التي بدلاً من دعم حركة التحرّر العالميّة المناهضة للاستعمار، «انضمت إلى جوقة المُتغنين بتفوق الغرب، عبر تشويه سمعة الاتحاد السوفيّاتي والصين، واستحضار الأوصاف العنصريّة لـ«برابرة» الشرق، مستخدمة مفردات «الحيوانات» و«القطعان» التي تحطّ من قدر الإنسانيّة بشكل صارخ (كما استعمل الصهاينة هذه الأيام العبارات نفسها لوصف الفلسطينيين)، معلنة بصراحة أنّ الرُوس «فاشيون» اختاروا «العبودية». ووصل الحدّ بـ«أدورنو» (Theodor Adorno) (وهو أحد رموز مدرسة فرانكفورت) أن انتقد الألمان الذين يعتقدون خطأ أنّ «الرُوس يُمثلون الاشتراكية»، مُدكِّراً إياهم بأنّ الرُوس في الواقع «فاشيون» (كما هي حال توصيفهم روسيا وشيطنتها، في موجة عداة لها تشبه الإسلاموفوبيا).

ويزايد «هوركهايمر» (Max Horkheimer) على «هابرماس» من خلال توجيهه الشوفيّ الأوروبي المركزي، ويؤكد «أنّ أوروبا وأميركا ربّما تكونان أفضل الحضارات التي أنتجها التاريخ حتّى الآن من حيث الرّخاء والعدالة، وأنّ الأمر الرّئيس الآن هو الحفاظ على هذه المكاسب»².

1- طلال عتريسي، التقدّم الغربي وتبدّد الوعد العظيم، مجلّة جامعة المعارف، لبنان، العدد التاسع، 2023م.

2- رشيد وحتي، هابرماس ومدرسة فرانكفورت ماركسية معطوبة، تغسل آثام الإمبراطورية، الأخبار، 2023/12/2م.

وعلى الرغم من أن تاريخ الغرب، كما يقول المفكر الفرنسي «إدغار موران» (Edgar Morin)، «هو منذ خمسة قرون اندفاع هائج من البربرية الأوروبية، ومن الغزو والاستعباد والاستعمار»¹، إلا أن هذا الغرب، بسبب كبريائه واستعلائه، يختزل تاريخ باقي الحضارات إلى مجرد بضعة أحداث قليلة. إنها الكبرياء التي تتكلم؛ الكبرياء الغربية الأوروبية التي لا يردع يقينها أي شك، والتي توهمنا بأن التاريخ الممتد لآلاف السنين في الصين ومصر يمكن اختزاله إلى بضعة أحداث، بينما تُضخم الأحداث في الغرب، مثل تلك المتعلقة بـ«لوثر» (Luther) و«نابليون» (Napoleon)، بشكل يجعل من تاريخ بضعة عقود أشباحاً تحجب عنا رؤية تاريخ الحضارات الشرقية الممتد لآلاف السنين².

ومع ذلك، في بداية احتكاكه بالشعوب غير الغربية أثناء استعمارها، كان الغرب يشكو أن بعض هذه الشعوب لا يمكن تمدينها؛ «مثل الصينيين واليابانيين والمصريين الذين يلهثون في مؤخرة هذا التطور، وأن بعضها لا يستطيع أن يقلد المتحضرين ويتعلم منهم إلا بالقدر الذي تستطيعه البهائم. فأى كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دمهم؟ كيف يمكن بطرفة عين انتشالهم ورفعهم إلى المستوى الرفيع الذي تطلب منا ألف سنة لجعلنا على ما نحن عليه الآن، نحن الأنجلو-ساكسون (Anglo-Saxons)؟»³.

وهكذا، عدّ الغربيون احتلال شعوب أفريقيا، والهند التي كانت تُوصف بأنها «ذات الأديان المتخلفة والعادات البائسة»، مهمة إنسانية. وعندما أتوا إلى العراق ومصر ولبنان وسوريا وفلسطين والأردن والجزائر، كرّروا سرديّة «التمدين» الإنسانية نفسها؛ مدّعين أنهم ينقلون شعوب هذه البلدان من «البداءة إلى الحضارة». وفي القرن العشرين، تحوّل «التمدين» إلى «الدفاع عن الديمقراطية» وعن «حقوق الإنسان»؛ لتسوية احتلال أفغانستان في عام 2001م، والعراق في عام 2003م. لا يختلف نصّ بيان «هايرماس» ورفاقه عن هذه الرؤية العنصرية الاستعلائية

1- إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربريتها، ص 20.

2- سهيل القش، المرأة المتكسرة تشظي الكيان اللبناني، ص 71، وكذلك: كتاب إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2015م.

3- منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية، ص 235-236.

تُجاه قضايا شعوب غير أوروبية. ففي حين ينشغل النَّصَّ الفلسفي للفيلسوف الألماني بتفهّم الآخر وحمايته عندما يكون أوروبياً أو يهودياً، يتراجع إلى الاتهام بالتَّوحش والدمويّة عندما يكون الآخر فلسطينياً أو «شرقاً أوسطياً» أو أفريقيّاً. هكذا باتت فلسفة «هابرماس» التّواصلية موضع شكّ وتهافت أخلاقيّ عندما تحيِّز في بيانه إلى الغرب، وإلى كيان «إسرائيل» الذي صنعه الغرب، بذريعة الحرص على «الحياة اليهودية» فقط، ومن دون الحرص على «الحياة الفلسطينية». هذا في الوقت الذي أيد فيه وزير التّراث الإسرائيليّ «عميحاي إياهو» قصف القطاع بقنبلة نووية (2023/11/5م)، ودعا وزير الأمن القوميّ الإسرائيليّ «إيتمار بن غفير» في تصريح علنيّ إلى إعدام الأسرى الفلسطينيين للتخلّص من مشكلة اكتظاظ السّجون. كما انتشر بعد تلك الدعوات مقطع مُصوّر يُظهر دعوة الحاخام الأميركيّ الإسرائيليّ «يوسي بالتيل» إلى إبادة سكّان غزّة؛ لإنهاء الحرب التي يشنّها جيش الاحتلال (2024/4/19م).

لا ينفصل التّحيز السياسيّ الغربيّ الاستعلائيّ لـ«هابرماس» عن تحيِّزه الفلسفيّ. فعلى خلاف موقفه من الدّين عموماً، ووصمه بالعقم في حركة الفلسفة وفي عموم التّراث المعرفيّ الإنسانيّ، صاهر «هابرماس» بين اليهودية والفلسفة، وخلص إلى أنّ مفهوم العقل، بصفته المصدر الأوّل، قد برز أوّل مرّة من خلال أقوال الأنبياء اليهود. كما جعل الرّوحية اليهودية حاکمة على علم الاجتماع الألمانيّ منذ عصر «لودفيك غومبولوفيتش» (Ludviacute Gombrowicz). مع أنّ «هابرماس» التزم موقفاً متشدداً من الفكر الإسلاميّ الذي أدرجه موصوفاً في خانة «الأصولية»، وعدّ أيّ محاولة يقوم بها الفكر الإسلاميّ للإسهام في دورة المناقشات الفكرية المعاصرة انتهاكاً لحرمة الحداثة.

في بيان «مبادئ التّضامن»، انقلب «هابرماس» على كونيّته وقيميّاته في الفلسفة التّواصلية؛ بل وعلى منهجه في الانفتاح على الفلسفات والمدارس الفكرية الأخرى، بانحيازه إلى اليهود الألمان ضدّ من سمّاهم «أولئك الذين يقيمون في ألمانيا» بنزع صفة المواطنة عن الأجانب الذين هاجروا إلى ألمانيا وحصلوا على جنسيّتها. ولكن، في المقابل، أصبحت «معاداة السامية» مسوّغاً لإلغاء حقوق المواطنة والجنسية، وكأنّه يمنح فئة من النّاس حقّ التّعبير والتّواصل في الفضاء العامّ، بينما يسلبه من فئات أخرى. وهكذا، ينقلب «هابرماس» على فلسفته

التواصلية، بما تتضمنه من دعوة مفتوحة للحوار والتلاقي بين الثقافات والأديان كافة.

«إنّ الإفلاس الأخلاقي لتصريح «هابرماس» بشأن فلسطين يُمثّل نقطة تحوّل في العلاقة الاستعمارية بين الفلسفة الأوروبية وبقية العالم. لقد استيقظ العالم من سبات الفلسفة العرقية الأوروبية الزائفة. واليوم، نحن مدينون بهذا التحرير للمعاناة العالمية لشعوب مثل الفلسطينيين الذين أدّت بطولاتهم وتضحياتهم التاريخية الطويلة إلى تفكيك الهمجية السافرة التي كانت تقوم عليها (الحضارة الغربية)»¹.
«ويبدو أنّ «هابرماس» لا يزال في «عصر الأنوار»؛ حيث نكون نحن أصلًا مقصيين من عالمه الفكري، ولا نكون فيه إلّا قراء وتلاميذ. نحن العرب وكلّ من هو خارج أوروبا وامتداداتها، كان من البداية غير مرئي لدى «هابرماس»، نحن وقضايانا وضحايانا. لذلك، فإنّ الفيلسوف الألماني متضامن مع المعتدين بضمير مرتاح، كيف لا، وهو ينطلق من فرضية فاسدة تضع البعض في مقام أعلى من الآخرين. وبناءً عليه، يصبح من البديهي أن تسيطر إسرائيل على العرب، تمامًا كما أنّه من البديهي أن يسيطر أيّ إنسان على محيطه الطبيعي»².

وفي ردّه على «هابرماس» وما جاء في ندائه التضامني، يقول آصف بيّات، أستاذ علم الاجتماع ودراسات الشرق الأوسط في جامعة إلينوي (Illinois):
«قلقي هنا ليس حول كيفية الحكم على تصرفات «إسرائيل» من منظور قانوني؛ بل حول كيفية فهم هذا البرود الأخلاقي واللأبالاة التي تظهرها في مواجهة هذا الدمار المذهل. كم عدد الأرواح التي يجب أن تُزهق قبل أن تصبح جديرة بالاهتمام؟ ما معنى «الالتزام باحترام كرامة الإنسان» الذي تؤكد به بشكل قاطع في نهاية بيانك؟ كما لو كنت تخشى أنّ الحديث عن معاناة الفلسطينيين من شأنه أن يقلل من التزامك الأخلاقي بحياة اليهود. إذا كان الأمر كذلك، كم هو مأساوي أنّ تصحيح خطأ فادح ارتكبت في الماضي يجب أن يرتبط بإدامة خطأ وحشي آخر في الوقت الحاضر.

1- فؤاد إبراهيم، فلاسفة الغرب وفلسطين، تواصلية هابرماس مشروطة بالتماهي مع إسرائيل، الأخبار، 2024/3/14م.

2- شوقي بن حسن، أركيولوجيا العقول المحتلّة نموذجًا، موقع العربي الجديد، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2023م.

أخشى أن هذه البوصلة الأخلاقية الملتوية مرتبطة بمنطق الاستثنائية الألمانية التي تناصرها؛ لأن الاستثنائية، بحكم تعريفها، لا تسمح بمعيار عالمي واحد؛ بل بمعايير تفاضلية. يصبح بعض الناس بشراً أكثر جدارة، والبعض الآخر أقل جدارة، والبعض الآخر لا يستحق أي اهتمام. هذا المنطق يوقف الحوار العقلاني ويزيل الحساسية من الوعي الأخلاقي، إنه يبني كتلة معرفية تمنعنا من رؤية معاناة الآخرين؛ ما يعوق التعاطف».

ويُنهى بيّات رسالته بدعوة «هابرماس» إلى استعادة كلمات الشاعر الفارسي في القرن الثالث عشر سعدي الشيرازي الذي كتب يقول:

«أبناء آدم بعضهم من بعض
في أصلهم خلقوا من جوهر واحد
إن أصاب الدهر أحد الأعضاء بال ألم
استجابت له باقي الأعضاء بالاضطراب
إن كنت لا تبالي بمحن الآخرين
فأنت لا تستحق أن تُسمّى آدمي»¹.

لقد درجت تقاليد جامعاتنا في البلدان العربية والإسلامية، منذ أكثر من نصف قرن، على مجرد نقل ما يُنتجه فلاسفة الغرب وعلماء الاجتماع والنفس وغيرهم؛ ما أدى إلى تخريج أجيال من الطلاب والمثقفين الذين يعتقدون بيقينية الفكر الغربي وعالميته. لم نلتفت إلى أن المعرفة، حتى في الغرب، لم تنفصل عن بيئاتها الاجتماعية والسياسية، وأنها يمكن أن تكون في خدمة هذه البيئات، كما كان «هابرماس» في خدمة الدولة الألمانية ومشاريعها وقوتها وسلطانها. «كان من الخطأ التاريخي وزن المعرفة بميزان المعرفة فقط، وإهمال وزنها بميزان السياسة والإيديولوجيا... وكنا طلاباً نجباء نُردّد بزهو ما تعلّمناه من الغربيين في الفلسفة والعلوم الإنسانية، ونسينا أن المعرفة إذا لم تكن إنسانية تنتصر للقيم الثابتة للبشرية، تبقى مجرد لغو وهذيان»².

إن بيان «هابرماس» أنموذج على تحيز فلاسفة الغرب إلى مركزيتهم الأوروبية، ولو على حساب حقوق الإنسان البديهيّة، وقد أسقط ادّعاءات كونيّة فلسفتهم،

1- شوقي بن حسن، أركيولوجيا العقول المحتلّة نموذجًا.

2- آصف بيّات، موقع نبض، 2023/11/1م.

وأسقط معها «أنموذج» الفيلسوف الغربي الذي انشغل المثقفون العرب والمسلمون، طوال عقود في جامعاتهم بما قاله وكتبه وألقاه من محاضرات. إنَّ التحيز هو سمة الفيلسوف الغربي الذي ينتقد الغرب، لكنَّه يخشى عليه من الانهيار أو من سقوط تجربته، أو من صعود تجارب مغايرة. وهذا التحيز ليس ظرفياً، بل تجده في تجربتهم الحياتية وفي عمق مخيلتهم الفلسفية، وفي مواقفهم المتحيزة لهذا الغرب عندما تحاول شعوب العالم التمرد على الهيمنة الغربية.

ملحق

«نداء التضامن»¹

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2023م، نشر «يورغن هابرماس» (Jurgen Habermas)، مع ثلاثة آخرين من النخبة الأكاديمية الألمانية في الصحافة الأوروبية والعالمية بياناً بعنوان «مبادئ التضامن، اتخاذ موقف»، في ما يلي نصه: «الوضع الحالي الذي خلقه هجوم «حماس» الوحشي الذي لا مثيل له، وردّ «إسرائيل» على هذا الهجوم، قد أدّى إلى ظهور سلسلة من المواقف والتظاهرات السياسية-الأخلاقية. ونعتقد أنه رغم وجهات النظر المتضاربة التي جرى التعبير عنها، فمن المناسب الاحتفاظ ببعض المبادئ التي لا يمكن الاعتراض عليها. إنها تُشكّل الأساس للتضامن مع «إسرائيل» ويهود ألمانيا.

إنّ المذبحة التي نفذتها «حماس» بهدف مُعلن تدمير الحياة اليهودية بشكل عام، هي ما دفع إسرائيل إلى الردّ. إنّ الطريقة التي نُفذ بها هذا الردّ، المسوّغ من حيث المبدأ، هي موضوع نقاش مثير للجدل.

إنّ مبادئ التناسب ومنع وقوع إصابات في صفوف المدنيين وشنّ الحرب بهدف تحقيق السلام في المستقبل، يجب أن توجّه هذه المناقشة. ورغم كلّ القلق بشأن مصير السكّان الفلسطينيين، فإنّ معايير التقييم تخطئ تماماً عندما نعزو نوايا الإبادة الجماعية إلى الفعل الإسرائيلي.

وعلى وجه الخصوص، إنّ تصرفات «إسرائيل» لا تسوّغ ردود الفعل المعادية للسامية، وحتى أقلّ من ذلك في ألمانيا. فمن غير المحتمل أن يتعرّض اليهود في ألمانيا مرّة أخرى لتهديد في حياتهم وسلامتهم الجسدية، وأن يُضطروا إلى الخوف من العنف الجسديّ في الشوارع.

إنّ المفهوم الديمقراطيّ لجمهورية ألمانيا الاتحادية الذي يُركّز على الالتزام

1- Habermas on Israel: a Principle of Solidarity, Research Center Normative Orders 15 November 2023:

<https://www.resetdoc.org/story/habermas-israel-principle-solidarity/>.

باحترام الكرامة الإنسانية، يرتبط بثقافة سياسية تعدّ الحياة اليهودية وقانون وجود «إسرائيل» عنصرين أساسيين فيها، في ضوء الجرائم الجماعية التي ارتكبت في الحقبة النازية. ومن الأساس، أن نلتزم بهما من أجل تعايشنا السياسي.

إنّ الحقوق الأساسية في الحرية والسلامة الجسدية والحماية من التشهير العنصري، لا يمكن فصلها وتطبيق على الجميع بالتساوي. ويجب على أولئك الذين زرعوا في بلادنا مشاعر وقناعات معادية للسامية وراء كل أنواع الذرائع، والذين يرون اليوم فرصة طيبة للتعبير عن هذه المشاعر والقناعات من دون ضبط النفس، أن يمثلوا لها أيضاً.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- إبراهيم، فؤاد، فلاسفة الغرب وفلسطين، تواصلية هابرماس مشروطة بالتماهي مع إسرائيل، الأخبار، 2024/3/14م.
- بزيان، سعدي، جرائم فرنسا في الجزائر: صفحات مظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر من الاحتلال 1830م إلى الاستقلال 1962م، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، 2005م.
- بيّات، آصف، موقع نبض، 2023/11/1م.
- سعيد، إدوارد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2015م.
- شوقي بن حسن، أركيولوجيا العقول المحتلة نموذجًا، موقع العربي الجديد، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2023م.
- عتريسي، طلال، التّقدّم الغربيّ وتبدّد الوعد العظيم، مجلة جامعة المعارف، لبنان، العدد التاسع، 2023م.
- القشّ، سهيل، المرأة المتكسرة تشظي الكيان اللبناني، بيروت، رياض الرئيس للكتب والنشر، 2022م.
- مقال بعنوان: عندما احتلت فرنسا أفريقيا لتضع حدًا للعبودية، مجلة Le Nouvel Observateur الفرنسية، تاريخ 2020/7/18.
- منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية، بيروت، دار الرئيس للكتب والنشر، 2009م.
- موران، إدغار، ثقافة أوروبا وبربريتها، المغرب، دار توبقال للنشر، 2007م.
- موقع الجزيرة، 2022/10/19م.
- هابرماس ومدرسة فرانكفورت ماركسية معطوبة، تغسل آثام الإمبراطورية، الأخبار، 2023/12/2م.
- هابرماس، يورغان الحداثة وخطابها السياسي، ط1، بيروت، دار النهار، 2002م.
- هابرماس، يورغن، الدين والعقلانية، نصوص وسياقات، ط1، سوريا، دار الحوار، 2016م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- George Wilhelm Friedrich Hegel, *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, Tome 1, J. Vrin, 1971.
- *Le Monde*, 2/10/2021.
- Pierre-Jean Luizard, *Le choc colonial et l'Islam, Les politiques religieuses des puissances coloniales en terre d'Islam*, Éditions la Découverte, Paris, 2006.